أليس العقل يحيل حدوث شيء دون علة تعاصره وتناصره ما هو كائن كما كوّن؟

أليس العلم لا يزال يفتش عن علل الحوادث الخفية[١].

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فمجرد الاشارة إليهما والإحالة عليهما يكفي، حيث يرد الشارد المارد إلى رشده سراعاً، فلم يزد الرسل على الإشارة حيث العاقل تكفيه الإشارة.

إن الانفطار الإنشقاق واقع معلوم ملموس لا مردّ له في كل كائن سوى الأوّل: المادة الفردة الأولى، فإنها لم تنشقّ عن شيء قبلها، وإنما خلقت لا من شيء، ثم فطرت سائر الأشياء كلها من المادة الأم، بوسيط أم بوسائط أم دون وسيط، حسب مختلف التراكيب الذرية والجزئية والعنصرية أما هي فوق الذرية وبعد العنصرية، فإنها كلها منفطرات، وقد عبر عنها كلها في القرآن كله بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تعبيراً عن الكون المنفطر دون المادة الأم.

أم إنها أيضاً تدخل ضمن الكل في نطاق الانفطار، إنشقاقاً لا عن شيء إلّا الإرادة الإلهية - إن صح التعبير - والانفطار هنا هو انفطار التعمير، ومن ثم انفطار التدمير ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[٢] ولا نجد الانفطار في سائر القرآن إلّا تعميراً عن المادة الأم أم تدميراً، ولكن الخلق قد يعم إيجاد المادة الأم وولائدها ككل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[٣] والمادة الأم شيء بل هي أصل كل شيء، مخلوقة قبل كل شيء.

فليس الخلق هو التقدير فقط، إذ لا تقدير في الخلق الأول إلا بعد خلقه

(١) راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين».
(٢) سورة الإنفطار، الآية: ١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[٢] وإن كان ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣] فهناك قدر في العلم يسبق خلق كل شيء، ثم قدر بعد الخلق يلحقه، ولأن الإنفطار ولادة وتبدل، فهو حركة في ماهيات الأشياء، دائبة في المادة والماديات على أية حال.

والحركة لزامها التغير والزمان، وهذه الثلاث لزامها التركب في أصل المادة وفرعها، وقد يعم الانفطار هذه الأربع بحذافيرها، فآية الفاطر هي من البراهين القاطعة الشاملة لحدوث العالم.

ثم العلم المحيط والقدرة المطلقة والحكمة العالية بارزة في كل منفطر في الكون ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[٤].

فـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل أوّل يزيح كل شك وريبة في الله، ثم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ دعوة أولى بضمان الإيمان ومن ثم دعوات أخرى على ضوء الإيمان بشروطه غفراً لسائر الذنوب، دعوة مربحة مريحة، ليست لأن الفاطر بحاجة في دعوته إلى منفطر، بل غفراً عن ذنوب هي لزام البعد عن الله.

فمن غفر لا يخرج المغفور له إلى توبة وسببه الإيمان: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٥] وهذه دعوة أولى فيها غفر لبعض الذنوب وهي السابقة على

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

الإيمان وطبعاً من غير حقوق الناس، و﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ هي ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ثم السالف الخاص بحقوق الله، بعض من بعض.

ومن ثم الإيمان قيد الفتك لاحقاً بضمان الجهاد فغفراً لكافة الذنوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢﴾[1].

فقد وعد المؤمنون المجاهدون بغفر ذنوبهم كلها، والكافرون بغفر البعض إن آمنوا وهكذا نرى فيما خوطب به الكافرون كما هنا وفي سواها: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ...﴾[2] ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ...﴾[3].

ومن ثم الذين آمنوا وأصلحوا وجاهدوا يغفر لهم ذنوبهم بتوبة أو ترك كبائر السيآت أو فعل كبائر الحسنات كما هنا، وبالشفاعة في الاخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ...﴾[5].

فالقول إن «من» هناك زائدة زائدة من القول، بل هي قاصدة ما قصدت من تبعيض.

وقد تعني ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ فيما تعني تأخيراً لأجل هم بالغوه تكملة للغفران بكمال الإيمان، كما تعني تأجيلاً عن عاجل العذاب إن

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
(٣) سورة نوح، الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

لم يؤمنوا، فسحة لمجال التفكير حتى يؤمنوا، فيغفر لهم ما قد سلف ومن ثم سائر الذنب على شرطه.

ترى وما هو ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؟ إنه المحتوم المسمّى في أم الكتاب وهو لا يؤخر مهما قدّم معلقاً وهو الأجل المعلق: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[1] فأصل الأجل هو المؤجل لمسماه وقد يعجل قبل مسماه لسبب غير مسمى أو مسمى كعذاب الاستئصال، فمن التأخير إلى أجل مسمى الإمهال إليه دون عذاب، ولكن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وظلموا قد يستعجل لهم العذاب قبل الأجل المسمى.

فالآجال المعلقة قد تعلق بسيئات العقائد والأعمال فعذاب الاستئصال، أو اللامبالات في الحفاظ على الحياة من صاحب الأجل أو الآخرين، أو التعمد في هدر الحياة منه أو الآخرين، ثم الحسنات - بإذن الله - قد تحول دون تحقق الآجال المعلقة كما في نار إبراهيم الخليل، وقد لا تحول كما في سائر المضطهدين من أولياء الله، لطفاً خفياً بهم، وكما يجلو أحياناً لآخرين.

أو ما كان جواب الناكرين عن هذه الحجج البالغة؟ إنه التعلق بمنعة المماثلة في البشرية عن اختصاصهم بالرسالة: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ وهي تتضمن تصديق الحجة السابقة إلّا في مصداقها الرسالي، فالمماثلة في البشرية حاضرة ماثلة، فأنتم بشر كما نحن، فلنكن وإياكم على سواء فيما أنتم، فإذ لا نجد في أنفسنا وحياً ولا رسالة - ونحن أحرى بما نملك من أموال وبنين - فبأحرى ألّا تجدوا أنتم في أنفسكم وحياً ولا رسالة حتى بالنسبة لأنفسكم فضلاً عمن سواكم، فليكن حامل رسالة الوحي غير بشر.

فما أنتم إلّا صادين عن سبيلنا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

(١) سورة نوح، الآية: ٤.

﴿ءَابَآؤُنَا﴾ فهل نترك ما تعودناه وعهدناه من آباءنا القدامى بدعوى خاوية خالية عن سلطان، فما تزيدوننا غير تخسير حين تتفضلون علينا بادعاء جوفاء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[١].

ولو إنكم مفضّلون علينا بوحي، أم أنتم على حق مما تصدون ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أنكم بحق وعلى وحي، وكيف نترك ما يعبد آباءنا دون سلطان مبين، ونحن في ذلك على سلطان الآباء.

وترى أن السلطان المتقاضى هو آية الرسالة البنية؟ و﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ...﴾[٢] فما من رسول إلا أرسل بآية لرسالته بينة منذ دعوته فكيف يتطلبون سلطان الآية على رسالاتهم؟!.

إنهم كانوا يتطلبون منهم آيات كما يشتهون غضّاً عما أتوا به من آيات فيها الحجة البينة، آيات هي سلطان على عقولهم كما يهوون، أم هي سلطان على نفوسهم لو انهم رسل الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾[٣].

فالسلطان - أياً كان - هو السلطة عقلية أو نفسية على طالبه، غلبا على عقله حتى يصدّق، أم غلبا على حياته إذ ليس ليصدّق، وهو على أية حال آية غالبة، ولا سيما المبين حيث يبين الحق عن الباطل، ولذلك تمتاز عن سائر الآيات كما ويفرد بعدها بالذكر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[٤] وهنا الجواب حازماً حاسماً بين تصديق لصادق الحجة وتكذيب لكاذب الدعوى:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٩٦.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾:

فـ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تصديق للماثلة، ثم «ولكن».. إخراج عنها، فإنما المماثلة في البشرية الظاهرة بمتطلباتها ومشاركاتها، ثم الخروج عن قضيتها المتعودة بما ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾.

فكما أن المماثلة في أصل البشرية في سائر البشر لا تقتضي المساواة في العلم والعقل من الأمور المعنوية، وبل ولا في الجمال والمال والأولاد وسائر الميّزات الظاهرة من غير المعنوية، كذلك - وبأحرى - بالنسبة لخارقة معنوية كالوحي والرسالة.

ولئن رجعوا قائلين ان هذه الميزات من حصائل المساعي على قدر سعي الساعي، ولكنما الوحي ليس يحصل بالسعي، فالجواب ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾.

فكما بالإمكان الواقع تفاضل البشر - على مماثلتهم - في بعض الفواضل والفضائل بما يعملون ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] كذلك الإمكان في التفاضل بما قد يأملون على ضوء ما يعملون، قضية الضرورة القاطعة من هدى الله، دون فوضى جزاف فيمن يهدي به الله وحياً ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾ أم ودون عمل كما في الجمال وأمثاله.

فهل من صاد يصد عن رحمة الله ومنّه على من يشاء من عباده ليشملهم كلهم برحمته؟ وكل الرحمات هي من الله لا سواه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾[2].

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

فإذ يمن الله على بعض في بعض النعم بما سعى، فمنه على بعض ومنّه على العالمين أولى وأحرى، منة ضخمة لا على اشخاص الرسل وحدهم، ولكن على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهنة العظمى، تلقياً بالقلب من الملاء الأعلى، وإلقاء على سائر المكلفين بكل سلطان مبين، رسالة واحدة هي ضرورية لهدى الحائرين الضالين، فسلبها كلياً سلب لرحمة كتبها الله على نفسه، وإيجابها لكل احد هدر للوحي حين يلقى إلى قلوب مقلوبة، وتسوية ظالمة بينها وبين قلوب طاهرة، وتسيير لغير الصالحين إلى صلاح الوحي وصالحه، وسلب للامتحان، فليختص بمن صنع نفسه مؤمناً كأعلى القمم الممكنة، ثم يصنعه الله كما هيأه من ذي قبل، صناعة مثلثة الزوايا، والأخيرة منها هي رأسها حيث يسده الله تعالى عن كل خطأ، ولكنها ليست فوضى جزاف، وإنما بما سعى وقدر ما سعى، وإن كان الله يساعده في المبدء والمنتهى، فالمأثوم عمداً وسواه لا يصلح ان يصبح معصوماً، وإنما الذي يصنعه الله على عينه ويرعاه برعايته وهو يعمل بعين الله كما يجب وكما قال الرسول ﷺ: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

ولكن السلطان - أياً كان - ليس هو من فعلنا وتحت قدراتنا، فـ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما نقول وتقولون ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه - فقط - فعل الله دون تحويل لسواه أو تخويل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فنحن نتوكل عليه في رسالاتنا ودعواتنا وعلى سائر المؤمنين أمن يفتش عن إيمان ان يتوكل عليه في سلطان وسواه، دون توكل على الرسل فإنهم بشر كما أنتم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

وهذه تتمة من صامدة الحجة الرسالية تقطع آمال الناكرين المعارضين حين يسمعون المرسلين مطمئنين إلى مواقفهم، ﴿وَمَا لَنَآ﴾ في رسالتنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلنا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ شخصياً ورسالياً، فعلينا المضيّ في سبيلنا تصبراً على كل أذى من الأعداء وكل لظى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ صبر الصمود على الدعوة، وعدم التفلّت عنها أم تلفّت إليهم قيد شعرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ حيث التوكل في صعاب الأمور مما لا بد منه، والتوكل على من سوى الله خسار وبوار، إذ لا يغني احد من الله شيئاً، فكما علينا نحن المرسلين أن نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، كذلك على المؤمنين إذ قد هداهم سبلهم.

فالقلب الذي يحس ندى الرحمة المتواصلة غير المحدودة من خالق الرحمة، وإنها تقود خطاه ويسده عن خطاه وتهديه السبيل، إنه قلب موصول بالله، فائض بخاصة الله، فاض عما سوى الله، فما لصاحبه ألا يتوكل على الله؟! أياً كانت العقبات في سبيل الرسالة الشائكة بالشبكات، المليئة بالأشلاء والدماء... فتصبرا دونما زعزعة وزحزحة، ودون انفراط وانفلات وحتى النفس الأخير.

ولمّا يرى الطغيان ذلك الصمود السائد في وجوه حاملي رسالات الله وواجهاتهم، ولم تبق له أية باقية من حجة إلّا داحضة، هنالك يتوسل بجبروت القوة وكما هي السنة السائدة بين حماقى الطغيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾:

تهدّد من الذين كفروا لرسلهم بإخراجهم من أرضهم نفياً عن بلادهم، أم عوداً في ملتهم، ثم توعّد من ربهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ترى هذا إخراجهم من أرضهم فكيف عودهم في ملتهم ولم يكونوا فيها بدء حتى يرجعوا فيها عوداً؟.

ألأن هذه مقالة الكفار ودعواهم أنهم كانوا قبل دعوى الرسالة في ملتهم ثم تحولوا عنها إلى ملة التوحيد ودعوى الرسالة، وكيف يصدق الكافر في قولته على المرسلين؟ ولكنما الدعوة الكافرة الباطلة لا تظل في كتاب الدعوة الحقة دون إبطال وإجابة! ولا نراها هنا! أم خيّل إليهم إنهم كانوا من قبل في ملتهم إذ لم يكونوا يتظاهرون بشيء من هذه وتلك، فليعودنّ فيما كانوا؟ فكذلك الأمر! أم أن العودة هي الصيرورة فلا تستلزم بداية الشرك؟ ولو عنتها لجيء بلفظ الصيرورة دون العودة!.

أم وإن كانوا على علم بما كانوا قبلئذ فليعودن في ملتهم كأحد منهم سكوتاً عما يدعون فـ ﴿مِلَّتِنَا﴾ لا تعني الملة الروحية بل هي هنا الملة والسلطة الزمنية، فليست الملة لتخص الروحية منها، وهنا القرينة على الزمنية إن المرسلين ليسوا قبل الرسالة إلا مؤمنين وفي قمة الإيمان نسبة إلى سائر المؤمنين، واحتمال الملة هنا الشرعة ليس يصنع حجة يمس ساحة الرسالة، أو يناحر حجة الرسالة بسابقة الإيمان وهي لزام الرسالة، كما ان آيات الاجتباء والاصطفاء كـ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] وأضرابها تصريحات بهذه السابقة السابغة، إضافة إلى برهان إمكان الأشرف، فلتكن الملة - إذاً - الملة الزمنية بسلطتها الجبارة. وقد تفي «في» دون «إلى» دلالة على هذا المعنى، فقد كانوا فيهم كما هم في ظاهر الحال فليعودوا فيهم كما كانوا على تقية دون دعوة ظاهرة؟ وعله - فقط - ما يعنون، أم هم مختلفون فيما يختلقون، فالمعاني الثلاثة - إذاً - معنية، وكفى الثالث معنى أصيلاً لا يحتاج إلى ابطال.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

ثم الخطاب لا يخص المرسلين حيث يهدفون بما يتهددونهم حسم مادة الرسالة والدعوة لها، فبقاء المؤمنين دون المرسلين بقية للدعوة، وتوطيد للداعية مهما خرجت عن محيط الدعوة، وكما صرحوا في شعيب ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ . . .﴾[1] وأما ذيل الآية ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾[2] فلا يدل - أيضاً - على الملة الروحية، حيث البقاء تحت السلطة الزمنية الكافرة دون دعوة جاهرة باهرة، وبعد انقضاء زمن التقية، ذلك افتراء على الله في هذه السلبية ان الرسالة لا تحمل دعوة جاهرة، وإنما هي سرية خفية على تقية! فتقية الرسل في الوقت الذي تحرم فيه التقية، تحسب من شاكلة الرسالة، وهكذا رسالة خاملة خامدة فرية على الله كذباً ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3] ان نعود إلى التقية في تلك الملة المشركة.

وبعد ذلك التهديد اللهيب يطمئنهم الوحي الحبيب: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ باستئصالهم قبل ان يحققوا وعيدهم على المرسلين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ وعداً لهم عليهم غير مكذوب، وأصدق المصاديق لهلاك الظالمين - ككل - وإسكان النبيين الأرض مكانهم، هو آخر الزمن حيث يقوم القائم المهدي عليه السلام بالحق والعدل المطلق ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[4].

ذلك مهما صدق هلاك هؤلاء وإسكان أولاء، خلال الزمن الرسالي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.